المقياس: مدخل إلى الفلسفة العامة

جذع مشترك علوم إنسانيّة

المجموعة ب

الأستاذ: أمين طالبي

المحاضرة الأولى: في تعريف الفلسفة وقلق المفهوم:

مفتتح استشكالي:

من المعلوم أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحاول استعمال عقله في القضايا التي تواجهه ومن خلال استعمال العقل والتأمُّل عادة ما يكون الرهان في ذلك هو التَّساؤُل أو بالأحرى استعمال فن السؤال من أجل الوصول إلى إجابات مقنعَة حول المصير، ومما لا شك فيه أنّ هذه الأخيرة بحدّ ذاتها أسئلة لا تنفكّ عن الوجود الإنساني. بيْدَ أنَّ كل الحضارات الإنسانية تحاول على مدار تاريخها أن تُجيب عن تلك المحاور الكبرى في حياة البشر. ولعلّ جُملة التأملات والإجابات هي ما يُسمَّى بالفلسفة أو طلب الحكمة. وقد كانت الفلسفة عبر تاريخها الطويل تحمل في طياتها وثناياها إجابات حول أسئلة الإنسان القلقة. ولكن السؤال الذي يُعاد ما طرحه في الفلسفة، هو ما الفلسفة؟ ما مفهومها؟ بماذا نفسر اختلاف تعريفها؟ وقد حاولت الفلسفة عبر تاريخها أن تطرح إجابات باختلاف الفضاءات المعرفية والأنساق الفلسفية.

1- في ماهية الفلسفة وسؤال النشأة:

أ- في المنظور اللغوي للفلسفة:

إن البحث عن الاشتقاق والخلفية الاتيمولوجية لكلمة فلسفة نجد أنها كلمة يونانية الأصل قائمة على حاصل التركيب الإضافي بين كلمتين أساسيتين هما: philos وتعني المحبة؛ وكلمة sophia وتعني الحكمة، فالفلسفة حسب هذا التركيب الإضافي هي " محبة الحكمة " ولا يمكن أن نجد في ثقافتنا العربية ومعاجمها القديمة على كلمة فلسفة، وقد جاء على لسان الفارابي أنّ اسم الفلسفة دخيل على في العربية وهو على مذهب لسانهم فيلا-صوفيا ومعناه إيثار الحكمة، والفيلسوف مشتق من كلمة الفلسفة، وهو على مذهب لسانهم philosophos (فيلوسوفوس) ومعناه المؤثر بالحكمة أو المُحبّ للحكمة.

ونجد أن كلمة الحكمة في لسان العرب - في مادة حُكم- تحمل معنى حاكم، أي الذي يحكم الأشياء ويُتقنها والحكيم هو من يتميّز بالحكمة في تسيير الأمور، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويُعرفها الجرجاني في قوله " أن الحكمة علم يبحث في عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية ويظهر أيضًا، أنّ الحكمة هي أنبل المعارف يتصف بها أنبل الناس، فالحكمة أسمى ما يمكن أن يتحصّل عليه الإنسان لأنها تجمع بين البصر والبصيرة بعين الحسّ والعقل.

ب- في المنظور الاصطلاحي:

انطلاقًا من اعتبار كلمة فلسفة هي حاصل الجمع بين كلمتين يونانيتين هما: philos و sophia وتعني من الناحية اللغوية الاشتقاقية محبة الحكمة أو إيثارها. فإنّ الفيلسوف هو المُحبّ للحكمة والعاشق لها والسير في طريقها للوصول إلى درجة من الحكمة.

ولعله من الضروري التنويه إلى أن الحكمة -خاصة في الفضاء المعرفي اليوناني- هي من شأن الآلهة، فالآلهة فقط هي من تَّوصف بالحكمة أما الإنسان فهو يُحاكي الآلهة للوصول إلى الحكمة (المحاكاة بمعنى التقليد) وقد نُقلت جملة من المفاهيم حول كلمة فلسفة وارتبطت عادة بالتفلسف كظاهرة إنسانية دون غيرها من الظواهر الإنسانية الأخرى. ومما لاشك فيه أن الإنسان هو الذي يمارس التفلسف، أي البحث الفكري من أجل التواصُل والتَّحاوُر.

ومن الضروري القول أنه من الصَّعب الإحاطَة بالفلسفة بتعريف جامعٍ مانع ومردّ ذلك إلى ما تحمله الفلسفة من خصائص على خلاف العلوم الأخرى التي يُمكن إحاطتها بتعريف والقبض على ماهيتها، وبالتالي فإنّ محاولة تعريف الفلسفة هو بحدّ ذاته تفلسف وتتبُّع لمسار تطورها. فيعرفها أفلاطون بأنها " علم الحقائق المطلقة الكامنة وراء ظواهر الأشياء" ويعني ذلك أن الظواهر ليست فيما تستقبله الحواس. فذلك ليس سوى ظلالا للحقيقة بيد أنّ الصورة الحقيقية مثالية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تدركها الحواس، فهي تُدرك بالعقل الذي يكشف المبادئ الأولى.

يظهر من تعريف أفلاطون للفلسفة أنها أبعد من أن يتم حصرها من مستقبلات حسيَّة للظواهر والأشياء، بينما يعرفها أرسطو بأنها "علم المبادئ والعلل الأولى للوجود أو قل أنها علم الوجود بما هو موجود "ولهذا كانت الفلسفة حسب أرسطو هي السَّعي إلى الكشف عن الأسباب والعلل الأولى للموجودات والظواهر. وعليه، فإذا كانت العلوم تهتم بدراسة الجزئيات (فعلم الفلك على سبيل المثال لا الحصر) يهتم بدراسة الظواهر المادية؛ فإنَّ الفلسفة تهتم بدراسة الوجود في كليته وتبحث في العلل الأولى التي يتشكّل منها الشيء ولهذا، فالفلسفة تنظر في الكليات أو الرؤية الكليَّة للعالم.

وقد اختلف تعريف الفلسفة في العصور الوسطى حيث كان يُنظر إليها على كونها تحمل أفكارًا مُعاديَّة ونقيضَ للدين خاصَّة في أوروبا أين كانت الكنيسة مُسيطرة على التقاليد والأعراف ولا يمكن التفلسف في العصور الوسطى إلاّ إذا كانت تفلسفا في الدين وفي إطار تعاليم الكنيسة. أما في العصر الحديث فقد شهدت أوروبا نهضة فكرية بعد ما سيطرت الكنيسة لقرون من الزمن، حيث ظهرت أفكارا تحررية ترنوا إلى علاج ومن ثمّ تصحيح الأوضاع السّائدة

خاصّة ما أفرزته فلسفة الأنوار من خلال سعيها إلى تحرير العقل من دوغمائية الكنيسة. وبالتالي إعادة الاعتبار إلى الإنسان من حيث هو كائن متميّز بالعقل.

ولعل أصدق تعريف للفلسفة في هذا العصر هو ما جاء على لسان أبو الفلسفة الحديثة روني ديكارت حين شبّه الفلسفة بشجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقا وفروعها باقي العلوم الأخرى، وهي ثلاث: الطب، الأخلاق، الميكانيكا" ويُحيل هذا التعريف إلى كون الفلسفة مُتصِّلة ومرتبطة بالعلوم الأخرى.

أما في الفلسفة المعاصرة فقد تجلّت تعريفات أخرى للفلسفة على خلاف ما عُرِّفت في الفضاء المعرفي اليوناني والإسلامي والحديث، بل إن الفكر الفلسفي المعاصر حاول إعادة تعرفي الفلسفة وإعادة إبداع إشكالات فلسفية تتوافق وخصوصيات العصر. ويُمكن القول في نهاية المطاف أنَّ الاختلاف في تعريف الفلسفة يرجع في حقيقة الأمر إلى الرؤية الإديولوجية لكل فيلسوف، أو النَّسقيَّة والمذهبيَّة التي يتبنَّاها كل فيلسوف. فكل فيلسوف يُعرِّف الفلسفة انطلاقًا من خصوصيات مذهبه وخصوصيات عصره وفضاءه المعرفي.

من خلال ما سبق يظهر جليًّا أن الفلسفة ترفض أن تُحصر في تعريف واحد جامع مانع يكون محلّ اتّفاق، ولهذا كان مفهوم الفلسفة يرتحل عبر الحضارات كالحضارات الشرقية، واليونانية والمسيحية والإسلامية، بما في ذلك حضارة الغرب الحديث. والفلسفة من حيث المنبع قديمة قدم الإنسان، فهي نزعة في الإنسان من حيث كونه كائن عاقل يستطيع أن يتأمّل وأن يتفلسف ويُراجع ذاته. وعادة ما يتكرر التساؤل حول أصل الفلسفة ونشأتها وتختلف الآراء في ذلك باختلاف المعطيات التاريخية والخلفيات المعرفية والتاريخية. فهناك من يرى أن البداية الحقّة للفلسفة تعود إلى أرض اليونان في القرن السادس قبل الميلاد مع الفيلسوف طاليس أحد فلاسفة المدرسة الطبيعية حين حاول الإجابة حول سؤال أصل الكون وذلك بردّه إلى عنصر مادّي هو الماء.

لكن وجب التذكير أن التفكير ظاهرة إنسانية لا يمكن حصره برقعة جغرافية دون غيرها، فالفلسفة كممارسة وكتفكير نظري كان موجودًا قبل الحضارة اليونانية، وبالتحديد لدى الحضارات الشرقية التي كانت تمتلك رؤية وطريقة في التفكير كما وتمتلك طريقة في الحياة. وهذا الرأي يقول بأنَّ البدايات الأولى للفلسفة- ولو كممارسة وتفكير نظري- قد وُجدت في الحضارات الشرقية القديمة (الحضارة المصرية، والحضارة الهندية، والحضارة الصينية) بدليل أن أغلب الفلاسفة اليونان قد ارتحلوا إلى بلاد الشرق من أجل النهل من ثقافة وحضارة الشرق، وهذا الرأي لا يُقصي ما بذله الإغريق في الفلسفة ولا يُنكر تلك الإضافات النوعية لفلاسفة اليونان. إنما يقدم وجهة نظر حول سؤال أصل الفلسفة.